٢

أثر اللسانيات التوليدية على تغيير الواقع النحوي بين استخلاف الماضي واستشراف المستقبل

The impact of generative linguistics< on the grammatical reality between succession of the past and the "foresight of the future

م.د. وقاص سعدي غركان
Dr: waqas saadi ghargan
م.د. عمر حسن رشيد
dr: omar hasan rashed

w_87s.icloud.com

الملخص

تُعد اللسانيات من أحدث العلوم الإنسانية عهدا، فظهورها وانتشارها يؤرخ لها من مطلع القرن العشرين، وكان لها مكان الصدارة في دائرة العلوم الإنسانية، وسماها (الإنثروبولوجيون) وعلماء النفس بأنها العلم الأكثر تقدما ودقة بين العلوم الإنسانية.

وإذا نظرنا الى قواعد النحو العربي فلا يعني ذلك أنَّ العربية وحدها هي التي تهتم بالمعيارية، فالمعيار متطَّلب ضروري لتحقيق التواصل والاستقرار اللغوي بين مجموعة الفئات التي تنتمي إليها الأمة وتسجل به تراثها وتزداد الحاجة الى المعايير كلما كبرت الأمة واتسعت رقعتها الحضارية وامتدَّ بها الزمان، والنحو العربي يختلف كثيرً عن علوم اللغة الأخرى كالصوت والصرف، فمع كثرة الدراسات اللسانية وتقدُّم نظرياتها هل استطاعت اللسانيات أن تقدم بديلاً عن النظام النحوي العربي؟ في الدراسات اللسانية الحديثة، واضافة على ذلك:

تُعنى مراكز التخطيط المستقبلي، أو (استشراف المستقبل) بتقديم الدراسات والمشاريع البحثية التي توضح المسار الطويل الأجل بغية بناء مجتمع المعرفة، واعتبارا إلى السعي لتشكيل المستقبل وفق رؤية الإسلام للعالم ومقاصده في عمارة الكون وقيمه في تحريك الحياة على امتدادها في الأزمان عبادة الله، وتعبيد الدنيا له ، وعلى تلك الدراسات المعتنية باستشراف المستقبل، أن تجعل من لسان العرب أساسا في النظر والاعتبار؛ لأن العربية لسان الاستخلاف الذي تضمن فقه التزكية، وحمل مشعل الحضارة الإنسانية جمعاء.

الكلمات المفتاحية: اللسانيات، التوليدية، النحو، تشومسكي، استشراف،

Abstract

Linguistics is one of the most recent human sciences. Its emergence and spread dates back to the beginning of the twentieth century، and it had a leading position in the human sciences department، and anthropologists and psychologists called it the most advanced and accurate science among the human sciences.

And if we look at the rules of Arabic grammar، this does not mean that Arabic alone is concerned with standardization، for the standard is a necessary requirement to achieve communication and linguistic stability between the group of groups to which the nation belongs and its heritage is recorded. It differs greatly from other language sciences such as sound and morphology. With the large number of linguistic studies and the advancement of its theories، has linguistics been able to offer an alternative to the Arabic grammatical system? In modern linguistic studies، in addition to that:

Future planning centers، or (foreseeing the future) are concerned with presenting studies and research projects that clarify the long-term path in order to build a knowledge society، and in view of the quest to shape the future according to Islam's vision of the world and its purposes in building the universe and its values in moving life along its length in times the worship of God، and the worship of the world He، and those studies concerned with anticipating the future، should make Lisan al-Arab a basis for consideration and consideration. Because Arabic is the tongue of succession، which included the jurisprudence of acclamation، and carried the torch of all human civilization.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أمَّا بعد:

تُعدُ اللسانيات من أحدث العلوم الإنسانية عهدا، فظهورها وانتشارها يؤرخ لها من مطلع القرن العشرين، وقد تبوأت مكان الصدارة في دائرة العلوم الإنسانية، ونعتها (الإنثروبولوجيون) وعلماء النفس بأنَّها العلمُ الأكثر تقدمًا ودقة بين العلوم الإنسانية، فجاءوا بنظريات عامَّة، وتطبيقات اطلقوها على علوم اللغة جمعاء، ونظريات أرادوا لجميع اللغات الانسانية أن تغير قواعدها، ونظامها اللغوي حتى تكون تابعةً لها.

وعبر الاستقراء: نجدُ أنَّ التطبيق المخل لتلك النظريات على نصوص اللغة العربية، والدراسات المتعجلة والأخذُ بكليتها، أوقع الدرس اللغوي العربي المعاصر في مأزقين شديدين، أحدهما: ضعف التحصيل في علوم العربية، والآخر: الإسقاطات المخلة عند تطبيق تلك النظريات، ممَّا أفقد كثيرًا من تلك الدراسات الجدوى والثمرة العلمية، من هذا المنطلق جاء هذا البحث الموسوم بـ(أثر اللسانيات التوليدية على تغيير الواقع النحوي بين استخلاف الماضي واستشراف المستقبل) ليُبيِّن أنَّ التغيير في قواعد العربية الأصلية يعتبر هدمًا، وليس مواكبة للحداثة، أو التغييرات الحياتية الجديدة التي أرادوا لها أن تكون بديلاً عن تراثنا العربي الأصيل، فتارةً تحت عنوان (التيسير)، وتارة (اللسانيات الكلية)، وغيرها من الأحكام التي يطلقونها على العربية جزافًا، وانتظم البحث في مبحثين مسبوقين بمقدمَّةٍ ومتلوين بخاتمة بينَّا فيها أهم النتائج والتوصيات، ومنهج البحث منهجًا وصفيًّا تحليليًّا حسب مقتضيات البحث العلمي، وكان المبحث الأول بعنوان: محاولة اللسانيين تغيير الواقع النحوي-الجملة أنموذجًا-، بينَّا فيه محاولة المستشرقين والمحدثين لإحداث الفوضى في قواعد لغتنا الفصيحة والرد على دعواهم، والثاني بعنوان: التراث اللغوي بين استخلاف الماضي واستشراف المستقبل، فكما نعمل جاهدين لبيان أصالة تراثنا اللغوي، نعمل على جعل العربية ضمن استشراف المستقبل، فالعربية صالحة لكل زمان ومكان، والعمل في هذا البحث كغيره من البحوث فكان عسيرًا، وحسبنا أنَّنا لم ندَّخر جهدًا فيه.

فمنْ كُلِّف بالعربية، وتشرَّفَ بحملها، ينبغي أنْ يكون على بصيرةٍ من أمرها، وفي هذا الصدد يقولُ الدكتور محمد الأوراغي: «ولا ينهضُ بهذا التكليف إلَّا خبيرٌ بتجارب المتقدمين، والمتأخرين... وليس من التكليف الوقوف عند ترديد أقوال السابقين بدعوى أنَّ الأول ما ترك للأخير شيئًا يقوله، ولا الاكتفاء بصياغة أصوات الغربيين الواصفةِ لغاتُهم، وإنزالها بألفاظ عربية على هذه اللغة بدعوى أنَّ الغربي يفكر للجميع وأنَّ القواعد المستخلصة من لغتهِ كليةً تنطبقُ على العربية وعلى كل لغة بشرية»[1]، وأسال الله أن

(١) لسان حضارة القرآن: ٧٦-٧٧، وينظر: العربية والحياة: ١٨-١٩.

يعم النفع فيه إنَّه سمعٌ مجيب.

المبحث الأول
محاولة اللسانيين تغيير الواقع النحوي-الجملة أنموذجًا-

اللسانيات والدراسة النحوية

للعرب باع طويل في الدرس اللغوي على مختلف المستويات، فدراستهم في النحو أذهلت الأجيال المتعاقبة من حيث غزارة المادة ووفرتها، ومن حيث القدرة على التحليل، والتفريع والإحاطة بالشوارد والنوادر(١).

فجميع العلوم بحاجة إلى قوانين ومعايير ضابطة؛ ليتسنى إتقانها وتعليمها، وفي هذا يقول الأستاذ الدكتور إسماعيل أحمد عمايرة: «ولا يعني ذلك أنَّ العربية وحدها التي تهتمُ بالمعيارية، فالمعيار متطلب ضروري لتحقيق التواصل والاستقرار اللغوي بين مجموعة الفئات التي تنتمي إليها الأمة وتسجل به تراثها، وتزداد الحاجة إلى المعايير كلما كبرت الأمة واتسعت رقعتها الحضارية وامتد بها الزمان»(٢).

ونظام النحو العربي يختلف كثيرا عن النظام الصوتي والصرفي، فمع كثرة الدراسات اللسانية وتقدم نظرياتها لم تستطع أن تقدمَ تلك اللسانيات بديلاً عن النظام النحوي العربي من وجهة نظر لسانية حديثة.

ومع صيحات تيسير النحو، تعالت دعوات تجديده، وإعادة ترتيبه وتهذيبه، ومن ثم تنزيل تلك الأبواب النحوية على النظريات اللغوية الحديثة؛ للتخلص من الجمود، والصعوبة التي صحبت ذلك النحو هكذا زعموا(٣).

ومن هنا وجه النقد إلى النحو العربي، والغريب في ذلك: أنَّ لكل اللغات الحيَّة نظامها اللغوي والنحوي: الألمانية، والإنجليزية، والفرنسية وغيرها، وفي اللغة اللاتينية القديمة، لكننا لم نسمع بمثل هذا الهجوم الشديد على قواعد النحو في اللغات الأجنبية، وإنَّما النقد كل النقد على سبيل النقض لا على سبيل النقد للنحو العربي، وكأنَّه لا يمثل مراحل التفكير المختلفة للإنسان العربي(٤).

وقد نبه المنصفون من أهل العلم والمعرفة أهمية الأخذ بطبيعة العربية وقوام نحوها، وذكروا أنَّ: «اللغة العربية مختلفة في طبيعتها عن طبيعة اللغات الهندو أوربية كلها ونحو اليونانية لا يصلح لإقامة نحو في لغة أخرى ليس بينهما ارتباط في أنظمة اللغة، ثم إنَّ عمق النظر في التحليل النحوي الذي نجده في كتاب سيبويه ليس له نظير في اليونانية ... يقوم النحو العربي على نظرية العامل، وهي نظرية لم يثبت حتى الآن أنَّها غير قويمة في تحليل التراكيب العربية، ولم يستطع أحد ممن انتقدوا هذه النظرية أن يأتي بمنهج نحوي يستطيع

(١) ينظر: التفكير اللغوي بين القديم والجديد: ٤٢١، والعربية واللسانيات: ١١١.
(٢) المستشرقون والمناهج اللغوية: ٩٨.
(٣) العربية واللسانيات: ٥٤.
(٤) ينظر: في نقد النحو العربي: ٣٠.

أن يفرض نفسه بديلا قويا قويمًا مقنعا»[1].

محاولات لسانية لتغيير نظام الجملة العربية:

برزتْ لنا في القرن العشرين طلائعَ نظريات لغوية في البحث الغربي، كان الغرضُ منها والغاية دراسة منهج اللغة الغربية، ولا مبالغة إنْ قلنا: إنَّ تزاحم الساحة الغربية بهذه النظريات منذ ألسنية دي سوسير إلى الآن دلالة على الإبداع والابتكار والاجتهاد في الفكر، غير أنَّ ذلك كله يكون باسقا مفيدًا يأتي بثماره في حدود ما ابتُكِرَ من أجله.

ومن هذه النظريات التي ملأت بفلسفتها التكوينية، وبعمقها المعرفي العقلي الديكارتي عقول الباحثين الغربيين هي (اللسانيات الكلية) ، وهذه النظرية الرياضية قد نظرت إلى اللغة من منظار الإبداع والقدرة وعمق ذلك العضو المتوارث من نسلٍ إلى نسل، ولأنها جاءت ردة فعلٍ على سلوكية بلومفيد فقد تلاقَفَها اللسانيون من كلِ جانبٍ، ولاسيما الغربيون لكونها حلاً لمشاكل لغاتهم، ولعلي أكون مصيبا وغير مبالغ إذا قلت:

إنَّ هذه النظرية قد اكتسبت شهرتها وأصالتها عندهم من ذكاء مؤسسها الشومسكي عندما قرر أن تكون الانكليزية هي مرجع كل اللغات فما يصح فيها يصح في غيرها.

ونجدُ أنَّ التطبيق المخل لتلك النظريات على نصوص اللغة العربية، والدراسات المتعجلة والأخذُ بكليتها، أوقع الدرس اللغوي العربي المعاصر في مأزقين شديدين:

أحدهما: ضعف التحصيل في علوم العربية، والآخر: الإسقاطات المخلة عند تطبيق تلك النظريات، ممَّا أفقد كثيرًا من تلك الدراسات الجدوى والثمرة العلمية[2].

فهذه النظرية في أنساقها وتجذرها في الفلسفة اليونانية كان لزاما أن تبقى في فلك الغرب لكن من سوءة العربية أن ادَّعى بعض أبنائها معرفتهم بها وتاهوا في غياهب جبها، فقرروا أنْ تكونَ اللسانيات الكلية هي الحل لكثير من مشاكل العربية، ولا نعلم إلى اليوم أين مشاكل لغة القرآن؟ يقول الدكتور رشيد العبيدي :

«ولعلني لا أبالغ اذا قلت : إنَّ ثمة غلوا محموما ينهد به نفر من المغرمين بالبحث الألسني الأوربي في هذا القرن يهدف إلى الانصراف عن البحث العربي الأصيل إلى الألسنية الحديثة ولاسيما المعنيين بالعربية ممن تعلموا شيئا عند الغربيين»[3].

ومن نافلة القول أنْ نقف عند غلو أحد المحدثين الذي ما انفك يرمي رمي عشواء منتقصا من العربية إلى أبعدِ حدودها إذ يقول: «فالمعطيات التي نجدها عند القدماء معطيات ناقصة، وليست ناقصة أو غير ذات تمثيلية فحسب بل هي أيضا معطيات زائفة»[4]، والحل عنده أَنْ نعتمدَ في دراسة العربية دراسةً بنَّاءةً

(١) اللسانيات المجال والوظيفة والمنهج: ٢١٧-٢١٨.

(٢) العربية واللسانيات: ١٩.

(٣) مباحث في علم اللغة واللسانيات: ٢٠٩.

(٤) اللسانيات واللغة العربية: ٥٤.

جديدةً على مَن دَرَسَ في الغربِ أو اهتم بدراسة اللهجات، وبعبارةٍ أخرى كما يرى الأوراغي:

بما أنَّ اللهجات المنتشرة في الوطن العربي خليط تكون من تداخل العربية ولغات أوربية فهي الأكثر طواعية لأن تنطبق عليها النماذج النحوية الغربية، واذا حصل هذا التطابق بين آلة الوصف الغربية وبين ما تصفه من أنساق التواصل لدى عرب اليوم زالت حجة التراثيين الرافضين لافتراض الأنحاء الغربية وتطبيق قواعدها لوصف العربية[١] .

اللسانيات الكلية ومفهوم الرتبة :

تواتر في أذهان اللسانيين الغربيين ومن تعمد بفكرهم من العرب الغرباء أن ((لكل لغة بشرية رتبة أصلية))[٢]، وزادت هذه الفكرة نضوجا ورسوخا منذ أن أصَّلَ شومسكي للعربية الرتبة(فعل ـ فاعل ـ مفعول به)، فوضع قاعدة تتداعى كل اللغات لها وهي (حرك الألف)[٣] من أجل توحيد الرتب في اللغات، ولا تعور قاعدة حرك الألف ولاتحوجه إليها إلَّا بسعي في إطار اللسانيات الكليَّة إلى رفع الفوارق بين الأنماط اللغوية بتخطي الوسائط، وهو ما حاوله شومسكي أولًا عن طريق ما يسميه بتعميم إطار نظريته للإحاطة بأنماط من اللغات المختلفة ظاهريا [٤]، وهذا أحد العرب المنغمسين في هذه النظرية حد النخاع يقول : ((والعربية يرد فيها الاسم رأسا في صدر المركب الاسمي ، والحرف رأسا في صدر المركب الحرفي ... فإذا عممنا هذا المبدأ ليشمل الجملة على اعتبار أنَّ الفعلَ رأسُ الجملةَ أمكن أنْ نقول: إنَّ الفعل في صدر الجملة هو أصلُ الرتبة كسائر الرؤوس الأخرى التي في صدر مركباتها) [٥].

إنَّ مرجعية الفاسي تنبع بحسب الأوراغي من فرضية (اكرنبرغ) المراسية القاضية بأن يكون لكل لغة رتبة أصلية، وكأنَّ كل اللغات تركيبية دون إعارة الاهتمام والوقوف على ضفاف اللغات التوليفية والرتبة فيها[٦]، وهي من القوادح الكثيرة التي تواجه النحو الكلي، وهنا لايترك الفاسي كلامه مهلهلاً دون أَنْ يؤسسه على دلائل استدعاها من التراث العربي تؤيد دون استقراء كامل على ما ذهب إليه من أصالة الرتبة الواحدة في العربية، ففي الإضمار يذكر النحاة: أنَّ مفسر الضمير يجب أنْ يتقدمه إما لفظًا أو رتبةً، فإذا صحَّ هذا القيد على الإضمار وجب أنْ تكون الرتبة أصلية وهي تقديم(الفعل) دوما كونه رأسا في العربية وأصلا، وكذلك في ظاهرة التطابق بين الفعل والفاعل من حيث الجنس والعدد إذا تقدَّم الفاعل على الفعل، فاذا لم يتقدم فلا ضرورة من هذه المطابقة[٧]، ويضاف إلى ذلك قياسه «ترابط مكونات الجملة بترابط مكونات غيرها من المركبات المتراصة[٨]، كالتبعية

(١) ينظر: نظرية اللسانيات النسبية دواعي النشأة: ٤٢ – ٤٣.
(٢) المصدر نفسه: ٢٦٣.
(٣) مصطلح استعملته اللسانيات الكلية دلالة على نقل أي مقولة إلى أي موقع ، ينظر: الوسائط اللغوية: ١٧٨.
(٤) ينظر: الوسائط اللغوية: ١٧٨.
(٥) اللسانيات واللغة العربية: ١٠٨.
(٦) ينظر الوسائط اللغوية: ١٧٩.
(٧) ينظر: اللسانيات واللغة العربية: ١٠٥ــــــ١٠٩.
(٨) يقصد بالمتراصة : مصطلح يدل على مركب ترابطت

ماعدا العطف والموصولية والحرفية» [1].

وهذا الفاسي ينطلق من عمق الموروث اللساني الغربي في تأصيل كلامه، إذ أنَّه يعترف بتعدد الرتبة في العربية غير أنَّه يرفضها لا لشيءٍ إلَّا لأنَّ القواعد القولية التي يعمل عليها تحتاج إلى أنْ تضعَ تعدد الرتب في العربية بين القواعد غير الطبيعية وغير المرغوب فيها، وكل ذلك رفضا أنْ تكون العربية لغة تختلف عن أقرانها[2]، ومن طرائف الحلول عنده حتى تكون العربية أمعةً لسيدة اللغات الشومسكية أن لجأ إلى حل قائم على ما أطلق عليه (الافتراض الرابطي): وهو افتراض يوحد بين الجمل التي اعتبرت اسمية، وتلك التي اعتبرت فعلية وهذا الافتراض يعني أن الجمل التي لايظهر فيها فعل في سطح البنية جمل ذات رابطة (أو رابطية) مثلها في ذلك مثل الجمل التي تظهر فيها رابطة، كما في: كان في الدار زيد، كان الرجال مجتمعين، فهذا الفعل الرابطة مزود بصفات الجهة والزمن يظهر في السطح، وقد لايظهر حين وجود صفات أخرى، فإذا صحَّ هذا الافتراض يكون المركب الاسمي الموجود(الهرم مرتفع، أمريض أنت) فاعلا! [3]، ولو أنعم هؤلاء النظر قليلاً في العربية لعلموا أنَّها أسمى من أن نقيدها برتبةٍ أصليةٍ واحدة فقط، يقول سيبويه في باب المسند والمسند إليه: «وهما ما لايغنى واحدٌ منهما عن الآخر، ولا يجد المتكلِّم منه بدًّا ... فلا بدَّ للفعل من الاسم كما لم يكن للاسم الأول بدٌّ من الآخر في الابتداء»[4]، وعجيب أنْ يغيبَ هكذا تأصيل لأول كتاب نحوي عربي تهافتت عليه عقول الناس عن بعض هؤلاء الباحثين وقصروا النظر إلَّا في ضبابية اللسانيات الكلية، وهذا ابن يعيش يقرر أنَّ العربية متعددة الرتب وكلها أصلية كما ذكر سيبويه: «وهذا إشارة إلى التركيب الذي ينعقد به الكلام، ويحصل من الفائدة فإن ذلك لايحصل إلَّا من اسمين، نحو: زيد أخوك .... أو من فعل واسم، نحو: قام زيد، وانطلق بكر، فيكون الفعل خبرا والاسم مخبرا عنه»[5]، بل أنَّ الذي يثبت أكثر غنى العربية بتعدد الرتب الأصلية ظاهرة الإعراب، وبعبارة أخرى أنَّ اختيار العربية وغيرها من اللغات وسيط العلامة المحمولة وهو معنى الإبانة عن المعاني باختلاف أواخر الكلم تكون قد ضمنت لفصها التركيبي بنية قاعدية ذات رتبة حرة، منها تشتق مباشرة كل التراتيب المحتملة، ولاتؤصِّل ترتيبا بعينه؛ لأن هذا العمل يليق بلغات اختارت وسيط الرتبة المحفوظة، فضمنت لفصها التركيبي بنية قاعدية ذات رتبة قارة هي الأصل[6]، ويرى الأوراغي أنَّ العربية كونها

مكوناته بعلاقة رتبية ، فامتنع عليها تبادل المواقع أو نقل بعضها أو الفصل بينها . ينظر: الهامش في الوسائط اللغوية: ١٨٠.

(١) المصدر نفسه.

(٢) ينظر: اللسانيات العامة واللغة العربية: ٥٦ - ١٣٣ - ١٣٤.

(٣) ينظر: المصدر نفسه.

(٤) الكتاب: ١/ ٢٣.

(٥) شرح المفصل: ١/ ٤٥.

(٦) ينظر: اللسانيات النسبية وتعليم اللغة العربية: ٢٦٤.

توليفية لا تحتاج إلى قاعدة تحريك(نقل أي مقولة إلى أي موقع)، بل إلى قاعدة تنضيد تنشئ بها علاقات رتبية بين مكونات الجملة المشرفة على التحقيق، فبواسطة التنضيد يمكن الاستغناء عن المفاهيم النظرية المناسبة لتحليل لغة من النمط التركيبي، إذ لا تحتاج العربية ومثلها من التوليفات إلى قاعدة (حرك الألف)؛ لأنه يتحقق بالتنضيد ما يتحقق في النمط التركيبي من اللغات بقاعدة التحريك المذكورة[1]، ولهذا يقرر(ونحن معه): بما للنمط التوليفي من بنية حرة تتولد منها مباشرة بأصول تداولية كل التراتيب المحتملة لايفتقر ولايحتاج إلى قاعدة حرك الألف التي يشغلها النمط التركيبي من أجل تفريع بنية بترتيب مغاير لترتيب بنيته القاعدية الغار ... [2]، ويؤكد ذلك في قوله أيضا: «كل لغة أخذت بوسيط الرتبة المحفوظة كالأنجليزية وجبت لها رتبة أصلية ... وكل لغة أخذت بوسيط العلامة المحمولة كالعربية وجبت لها رتبة حرة ، فيسمح تركيبها التوليفي بكل التراتيب الممكنة ولا يمنع ترتيبا»[3].

وخلاصة القول فيما سبق من نقودات لازمت اللسانيات الكلية:

أنَّ اللغات التوليفية ومنها العربية بما يميزها من خصائص كوسيط التصريف والعلامة المحمولة، وفص المعجم الشقيق واصطناعية العلاقة وتعدد الرتب الأصلية فيها كل ذلك وغيره كثير يجعل من الاستحالة أن تسكن تحت خيمة واحدة مع اللغات التركيبية والتي يمنعها هي بدورها مميزات تناقض اللغات التوليفية كالعلاقة الاعتباطية ووسيط الترصيص وحرك الألف والرتبة المحفوظة وأصالة الرتبة ووحدانية الأدوار والمحاور، ولولا العلاقات المجردة والدلالات المحضة لما التقت هذه اللغات إلَّا كونها أصواتا للتعبير عن الأغراض، وهنا يمكن القول إنَّ النسق المنطقي للسانية الشومسكية مؤهل فقط أن يتنبأ بمبادئ وقواعد وفصوص اللغات التركيبية كالانجليزية والفرنسية وغيره، أمَّا في اللغات التوليفية فهو لامحالة ـ اعتمادا على ماسبق وغيره ـ قاصر في الإحاطة بالخصائص البنيوية لهذه اللغات[4]، فتجميع اللغات تحت مفهوم لساني واحد يشترط فيه توافق الوسائط السابقة فيما بينها، فمن أوجه الالتقاء في اللسانيات المستقبلية لتكون شمولية أن تهتم في حصر الاحتمالات اللسانية المتقابلة وتنسق مختلف الوسائط اللغوية المتوافقة اهتمام العلومية الخاصة على أصول علم بعينه؛ لتجعل منها موضوعا للتحليل والفحص الدقيق[5]، ومما تقدم يتبين الفقر المعرفي من بعض المحدثين بعربية سيبويه المحفوظة بالقرآن عندما يقرر أنَّ النماذج الغربية أثبتت كفايتها الوصفية وليس هناك ما يمكن أن يشكك بقدرتها على وصف العربية بها ، إلَّا اذا كان الأمر يتعلق بشعوذة تدعي

(١) ينظر الوسائط اللغوية: ١٧٨.
(٢) ينظر: الوسائط اللغوية: ١٧٨.
(٣) نظرية اللسانيات النسبية دواعي النشأة: ٨٣.
(٤) ينظر: اللسانيات النسبية وتعليم اللغة العربية: ٢٦٧.
(٥) ينظر: الوسائط اللغوية: ٣٩٥.

أننا نحتاج إلى غير النموذج الغربي في ذلك المجال[1]، يقول الدكتور رشيد العبيدي(رحمه الله) : «من العسر والتعذر أن أطبق منهجا بحثيا وضع مناسبا للغة أو لغات ذوات سمات خاصة على لغة امتلكت في ذاتها قوة خلودها وبقائها راسخا على خصائصها»[2].

المبحث الثاني: التراث اللغوي بين استخلاف الماضي واستشراف المستقبل

للعرب في النحو واللغة ما ليس لغيرهم، ما أجلَّ وأعظم هذا الكلام! فهذه اللغة القرآنية ما كانت أن تستوعب بلاغة القرآن ولا أن ينثني لها كتاب الله حافظا إلَّا من ثنايا ما تميزها عن بواقي اللغات.

والنظام اللغوي خاصية فريدة انفردت بها العربية، فمن الطبعي أن تعلو أصوات انحدرت من أصول غربية تنادي بهدم هذه القواعد كونها ثقلا وصنعة مكتسبة ولدت من رحم الفلسفة والكلامية التي اجتاحت عقول علمائنا الأوائل، غير أن هذه الظاهرة في جلالها وجمالها تنبيك أنَّها ليست فضلا من القول، وإنِّما أصل من أصول كشف نقاب المعنى وهتك حجابه لغرض الوقوف على ما استتر منه، فهل يمكن أن نتصور ولو افتراضا أن المعنى يكشف عن ساقه ويعجب الزراع نباته هكذا؟ فهل بان من المعنى، بل المعنى كله إلَّا من ثنايا النصوص والمقام واللغة والقواعد، ومن جانبٍ آخر يجب علينا مواكبة العلم، لكن ليس بمعزل عن تراثنا النفيس، فمن ضيع الأصول فاته الوصول الى مبتغاه، ولنقرر شيئًا وهو:

أنَّه لا يجوز لأحد أن يتردد في وجوب دخولنا المعاصرة؛ لأن رفض أن تكون في عصرك يعني رفض أن تكون حيا، ولكنها المعاصرة التي نصنعها نحن باجتهادنا وبعقولنا، والمعاصرة النابعة من صحيح حاجاتنا.

وكل أمة قوية تصنع معاصرتها بفكرها وعقولها، واجتهاد علمائها، هذا الاجتهاد المنغمس في صحيح حاجاتها، وبذلك تتنوع المعاصرة وتتغير تبعا لتغير خصوصيات الأمم، وليس هناك معاصرة واحدة تدخل فيها الأمم.

وعلينا التذكير أنَّه جديرٌ بكل عاقل أن ينتفع من الحكمة والعلم النافع، وباب الاجتهاد مفتوح والمشترك العقلي الانساني لا يدفع وعلينا أن نذكر في هذا المقام:

«أنَّ الدرس اللغوي العربي قد تطور تطورًا ملحوظًا في مناهجه وأساليب بحثه، وقد بات لزامًا أن تفيد العربية من ذلك كله، ولا يعني هذا بحال من الأحوال أن يرفض القديم لقدمه، كما لا يعني أن يؤخذ الحديث لحداثته، فالحقيقة اللغوية هي الهدف، والكشف عنها هو الغاية، وما يوصل إليها هوا الوسيلة»[3]

وعلومنا اللسانية كانت وفية لعلوم الإسلام وعلوم حضارته، استخرجت لنا مراد الحق من كلام

(١) ينظر اللسانيات العامة واللغة العربية ٥٧.
(٢) ينظر: مباحث في علوم اللغة واللسانيات: ٢٠٩.
(٣) المستشرقون ونظرياتهم في نشأة الدراسات اللغوية العربية: ١٥.

الحق، واتسعت لجديد الخلق، فمن خطل القول أن أصول النظر التي بنيت عليها محدودة وقاصرة، أو أن هذه المناهج لا تفي بمتطلباتنا.

وما نورده من تنبيهات واستدراكات فيما يخص بعض الدراسات اللسانية لا يعني الانتقاص من حملة هذا العلم وما توصلوا إليه، فالجميع يعلم أن في أقطار العربية جمعا غفيرا تفقه في هذا العلم وفروعه واجتهد بإيضاحه وتعريبه، وعمل على تقريب الدراسات اللسانية في جوانب مهمة، وكانت لهم اليد البيضاء في التنبيه على تقييد ما أطلق، وتبيين ما أجمل، ودفع ما أسقط خطأ ونحو ذلك(١).

وهذا مُشاهَد في جيل الرواد من اللسانيين، ومن تبعهم ممَّن تسلح بالدرس القديم وفقهه، وسبر غور الدراسات الحديثة ووعاها، فأنتج لنا مقاربات علمية مهمة في دراسة اللغة وتدريسها، ودراسة اللغة دراسة علمية معناه الأخذ الأكيد بالقوانين الثابتة في باب التوجيه والتفسير، من ذلك: مسألة تجديد الفكر النحوي عند المحدثين:

تبنى عبد الرحمن أيوب في نقده النحو العربي منهج مدرسة «التحليل الشكلي-، وفي كتابه (دراسات نقدية في النحو العربي) يُسَطِّر مآخذه على النحو العربي بقوله:

«ولقد بلغت الشكوى من النحو العربي مدى أصبح من غير الممكن أن يتجاهل، وكثر حديث الناس عن الحاجة إلى نحو جديدٍ، وظنَّ الكثير أنَّ الأمرَ لا يعدو إعادة تدوين النظريات النحوية بأسلوب حديث، ولكن الأمر عندي أعمق من كل هذا، فالنحو العربي - شأنه في ذلك شأن ثقافاتنا التقليدية في عمومها- يقوم على نوع من التفكير الجزئي الذي يعني بالمثال قبل أن يعني بالنظرية، ومن أجل هذا جهد النحاة في تأويل ما أشكل على القاعدة من أمثلة أكثر مما جهدوا في مراجعة منطقهم ونظرياتهم على ضوء ما يشكل عليها، وثمة عيب آخر في التفكير النحوي التقليدي، ذلك أنه لا يخلص إلى قاعدته من مادته، بل انه يبني القاعدة على أساس من اعتبارات عقلية أخرى، ثم يعمد إلى المادة فيفرض عليها القاعدة التي يقول بها، وهذا النوع من التفكير الذي يسميه الغربيون a priori لا يمكن أن يوصف بأنه تفكير علمي بالمعنى الحديث»(٢).

والتصور الذي جاء به الدكتور عبد الرحمن أيوب فيما يخص أصالة الفكر النحوي وأنه قائم على تقليد وعدم الانطلاق من واقع اللغة، يرد عليه بجملة من الأمور:

أولا: المفارقة في وجهة النقد: المنهج الذي تبناه عبد الرحمن أيوب في نقده النحاة القدامى يقوم على مفارقة واضحة، إذ لا يمكن أن يوصف اتجاه ما إذا درس من وجهة نظر مخالفة، من دون أن يراعي الباحث الإطار الثقافي العام الذي ولد ذلك الاتجاه فيه، فلكل نظرية علمية أو اتجاه فكري خصوصية يتميز بها.

ومثل ذلك أيضا في نقد النحو العربي بأنه صادر

(١) ينظر: العربية واللسانيات: ٧.

(٢) دراسات نقدية في النحو العربي ص: د.

عن تصورات عقلية ومنطقية، وأن عمل النحوي ينبغي أن ينصب على الواقع اللغوي وحده، كما يتمثل في النطق أو الكتابة، وفيما عدا ذلك فليس من عمل علماء اللغة؛ لأنَّه لا يقع في نطاق الملاحظة المباشرة، ولذلك استبعدت مدرسة التحليل الشكلي المعنى، بل اعتبره بلومفيلد أضعف نقطة في علم اللغة، وجعل عمله مقصورا على التحليل الفونولوجي والمورفولوجي على أساس شكلي(١).

ثانيًا التعميم بالنقد: وعلق الأستاذ العلامة محمد عبد الخالق عضيمة على كلام الدكتور عبد الرحمن أيوب بقوله:

«والدكتور أيوب لم يطعن في النحو العربي وحده، وإنما تناول الثقافة العربية كلها بالطعن، قال في المقدمة: «فالنحو العربي شأنه في ذلك شأن ثقافتنا التقليدية في عمومها، تقوم على نوع من التفكير الجزئي الذي يعنى بالمثال قبل أن يعنى بالقاعدة-، ولست أدري ما الذي يقصده من «التفكير الجزئي-، هل يريد أن يكرر كلام (رينان) الفيلسوف الفرنسي في طعنه العقلية السامية بأنَّها عقلية مفرقة تتناول الجزئيات ولا تصل الى الكليات أو يريد شيئًا آخر؟»(٢).

ومما يلفت النظر في هذا النقد أننا أمام تعميم لا يقف عند حدود نقد التفكير النحوي عند العرب، بل يتعداه إلى الثقافة العربية وحدها التي وصفها مع التفكير النحوي بالتقليدية ومن ثم فنحن أمام تفكير نحوي تقليدي نعرفه، ولون آخر من التفكير النحوي غير التقليدي لا نعرفه.

ووصف علماء اللغة العربية القدماء والنحو العربي بمصطلح التقليدية هو تبني لوجهة نظر أوربية في دراسة تاريخ الفكر اللغوي الإنساني، وهو وصف ينتظم عندهم الدراسات اللغوية قبل دي سوسير في مقابل النظريات اللغوية الحديثة(٣).

فالتفكير النحوي في العربية أصيل في بابه، نابع من ذات العربية ومن دواعي نشأتها وقد وضع على أسس وضوابط لغوية ومنهجية (إبيستمولوجية) مغايرة للأسس والضوابط التي قام عليها المنطق الأرسطي أو النحو اليوناني، وقد أفضت تلك الأسس والضوابط إلى قواعد ومصطلحات مفصلة على جسد العربية تفصيلاً يظهر ملامحها، ويوضح قسامها من خلال التوجه المباشر إلى متن اللسان العربي والتأمل في نسيجه، واستخراج القواعد والمصطلحات من هذا النسيج(٤).

العربية واستشراف المستقبل

تُعنى مراكز التخطيط المستقبلي، أو (استشراف المستقبل) بتقديم الدراسات والمشاريع البحثية التي توضح المسار طويل الأجل بغية بناء مجتمع المعرفة، ومما يجب التنبيه إليه هنا:

أنَّ مسؤولية المسلم تجاه حركة المستقبل استشرافا

(١) ينظر: العربية واللسانيات: ١١٤، والعربية وعلم اللغة البنيوي: ١٧٩.
(٢) ينظر: محمد عبد الخالق عضيمة سيرة حياة: ٥٣٤.
(٣) ينظر: العربية وعلم اللغة البنيوي: ١٦٨.
(٤) ينظر: العربية واللسانيات ١١٥.

وائتمانا ليست رجما بالغيب المنهي عنه، ولا مؤسسة على عناصر معاندة للقدر، ولا خرقا للزمن الواقع كما قد يظن، بل هي مسؤولية تحمل في جوهرها عناصر حركة تفكيرية وعملية تنطلق من الوعي بالسنن الفاعلة والحاكمة لحركة الحياة والأحياء تدبرا، واعتبارا إلى السعي لتشكيل المستقبل وفق رؤية الإسلام للعالم ومقاصده في عمارة الكون وقيمه في تحريك الحياة على امتدادها في الأزمان عبادة لله، وتعبيد الدنيا له[1]

وعلى تلك الدراسات المعتنية باستشراف المستقبل، أن تجعل من لسان العرب أساسا في النظر والاعتبار؛ لأن العربية لسان الاستخلاف الذي تضمن فقه التزكية، وقرر الاستقامة وحمل مشعل الحضارة الإنسانية جمعاء، فانطوى على أسرار وحكم كانت من أعظم العبر لبني البشر.

فالعربية لغة الرسالة العالمية الخاتمة وتتاح لها في حقبة العولمة هذه فرص الإعداد والإمداد؛ فالعلاقة بين الأمم ولغاتها علاقة تبادلية طردية، ولكن الإفادة من هذه الحالة تحتاج إلى تخطيط للعربية مع كل تخطيط مستقبلي؛ لأن السياسة اللغوية آلية لموضعة في البنية الاجتماعية بشكل يجعل اللغة تحدد من ستفتح في وجهه أبواب السلطة السياسية، والثروات الاقتصادية، وتعد السياسة اللغوية آلية بوساطتها تضع المجموعات السائدة أسس الهيمنة في استعمال اللغة[2]

وهذا يتطلب منا إزالة الغبش الذي قيل عن تعريب التعليم، وفسح المجال أمام العربية في جميع أرجاء الحياة، وألَّا نلتفت إلى أبواق العاجزين؛ فالمسلمون الجامدون فتنة لأعداء الإسلام، وحجة عليه[3].

الخاتمة

بعد رحلة علمية في هذا البحث الموسوم وفي ختام هذه الرحلة استوقفت القلم ليسجل أهم ما عنَّ من نتائج ، وهي الآتي :

* تعالت الدعوات الى تغيير النظام، وتنزيل الأبواب النحوية على النظريات اللغوية الحديثة؛ للتخلص من الجمود والصعوبة.

* نظام النحو العربي أصيلٌ في بابه، فمع كثرة الدراسات اللسانية وتقدم نظرياتها لم تستطع أن تقدمَ تلك اللسانيات بديلاً عن النظام النحوي العربي من وجهة نظر لسانية حديثة.

* اللغة العربية مختلفة في طبيعتها عن طبيعة اللغات الهندو أوربية كلها ونحو اليونانية لا يصلح لإقامة نحو في لغة أخرى ليس بينهما ارتباط في أنظمة اللغة.

* التطبيق المخل لتلك النظريات على نصوص اللغة العربية، والدراسات المتعجلة والأخذُ بكليتها، أوقع الدرس اللغوي العربي في كثير من المتاهات.

* لا يجوز لأحد أن يتردد في وجوب دخولنا المعاصرة؛ لأنَّ رفض أن تكون في عصرك يعني رفض أن تكون حيا، ولكنها المعاصرة التي نصنعها نحن

(١) الاتمان على المستقبل في السنة النبوية: ١٠٧.
(٢) ينظر: السياسة اللغوية: ١٦.
(٣) ينظر: العربية والحياة: ٩٢.

باجتهادنا وبعقولنا، والمعاصرة النابعة من صحيح حاجاتنا.

* وعلى تلك الدراسات المعتنية باستشراف المستقبل، أن تجعل من لسان العرب أساسا في النظر والاعتبار؛ لأن العربية لسان الاستخلاف الذي تضمن فقه التزكية، وقرر الاستقامة وحمل مشعل الحضارة الإنسانية جمعاء، فانطوى على أسرار وحكم كانت من أعظم العبر لبني البشر.

* يجب علينا إزالة الغبش الذي قيل عن تعريب التعليم، وفسح المجال أمام العربية في جميع أرجاء الحياة، وألّا نلتفت إلى أبواق العاجزين؛ فالمسلمون الجامدون فتنة لأعداء الإسلام، وحجة عليه.

المصادر والمراجع

- الاتمان على المستقبل في السنة النبوية محو حداثة انسانية جديدة، د. محمد عبد الفتاح الخطيب، طبع في الندوة العلمية الختمسة، بعنوان: (الاستشراف والتخطيط المستقبلي في السنة النبوية)، كلية الدراسات الاسلامية والعربية. دبي ١٤٣٢ه/ ٢٠١١م.
- التفكير اللغوي بين القديم والجديد، الاستاذ الدكتور كمال بشر، دار غريب القاهرة، ٢٠٠٥م.
- دراسات نقدية في النحو العربي، د. عبد الرحمن محمد ايوب، مؤسسة الصباح الكويت. د.ت.
- السياسة اللغوية، جيمس أ، طوليفيسن، ترجمة محمد خطابي، مجلة علامات العدد ٩.
- شرح المفصل، يعيش بن علي موفق الدين ابن يعيش ت(٦٤٦ه)، تح: ابراهيم أحمد عبد الله، دار سعد الدين، دمشق، ط: ١، ١٤٣٤ه-٢٠١٣م.
- العربية والحياة، د. يوسف خلف محل، دار أروقة للدراسات والنشر، ط: ١، ١٤٣٨ه-٢٠١٧م.
- العربية واللسانيات قراءةٌ ناقدة، د. يوسف خلف محل، مكتبة الحبيب، بغداد، ط: ١، ٢٠١٨م.
- العربية وعلم اللغة البنيوي (دراسة في الفكر اللغوي العربي الحديث)، حلمي خليل، دار المعرفة الجامعية، ط:١، ٢٠٠٠م.
- في اللسانيات العامة واللغة العربية تاريخها ، طبيعتها ، موضوعها ، مفاهيمها ، د ، مصطفى غلفان ، ط١ ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، لبنان ، ٢٠١٠م.
- في نقد النحو العربي، د. صابر بكر ابو السعود، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٨م.
- الكتاب ، سيبويه ، تح ، عبد السلام محمد هارون ، ط٥ ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ٢٠٠٩م .
- لسان حضارة القرآن، محمد الأوراغي، دار الأمان-الرباط، منشورات الاختلاف- الجزائر، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت ط١، ١٤٣١ه، ٢٠١٠م.
- اللسانيات المجال والوظفة والمنهج ، د ، سمير شريف استيتية ، ط٢ ، عالم الكتب الحديثة ، الأردن ، ٢٠٠٨م.
- اللسانيات النسبية وتعليم اللغة العربية ، د ، محمد الأوراغي ، ط١ ، منشورات الاختلاف ، الجزائر ، ٢٠١٠م.

- اللسانيات واللغة العربية ، د ، عبد القادر الفاسي الفهري ، ط١ ، دار توبقال للنشر ، الرباط ، المغرب ، ١٩٨٥م.
- مباحث في علم اللغة واللسانيات ، د ، رشيد عبد الرحمن العبيدي ، ط١ ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ٢٠٠٢م.
- محمد عبد الخالق عضيمة سيرة حياة، تركي بن سهو العتيبي، مركز البحوث والتواصل المعرفي، الرياض- ط: ١، ١٤٣٩ه، ٢٠١٧م.
- المستشرقون والمناهج اللغوية، أ.د. اسماعيل احمد عمايرة، دار وائل للنشر، عمَّان، ط:٣، ٢٠٢م.
- المستشرقون ونظرياتهم في نشأة الدراسات اللغوية العربية، . اسماعيل احمد عمايرة، دار وائل للنشر، عمَّان، ط:٣، ٢٠٢م.
- نظرية اللسانيات النسبية دواعي النشأة ، د ، محمد الأوراغي ، ط١ ، منشورات اختلاف ، الجزائر ، ٢٠١٠م.
- الوسائط اللغوية ، أفول اللسانيات الكلية ، د، محمد الأوراغي ، دارالأمان ط١ ، الرباط ، ٢٠٠١م.